الإعجاز البلاغي والبياني في القراءات القرآنية

د. غربي بكاي
معهد الآداب واللغات
المركز الجامعي تيسمسيلت
الجزائر

ملخص بالعربية:

تعددت وجوه الإعجاز في القرآن الكريم من إخبار عن الأمم السابقة وما جرى لهم، ومن أمور الغيب التي ستحدث يوم القيامة، بالإضافة إلى إعجازه العلمي والعددي والتشريعي، وأسلوبه الفني البديع الذي أعجز أرباب البلاغة وسدنة البيان أن يأتوا بمثله، وقد اختلفت قراءاته في وجوه كثيرة جعلت العلماء يقفون عندها ليبيِّنوا أهداف وأغراض هذا الاختلاف، ومنه جاء بحثي هذا ليُبيِّن بعض أوجه الإعجاز البلاغي والبياني في اختلاف القراءات، وما ينجم عنه وينبثق منه من ثروة علمية هائلة،وتنوع في الأحكام الفقهية، فالمعاني تتعدد وتتنوع بسبب اختلاف الكلمات من التخفيف إلى التشديد، وبالزيادة والحذف، وباختلاف الحركات الإعرابية، وتغيّر الصيغ الصرفية، والإشكال الذي يُطرح هنا هو: ما السرّ البلاغي والبياني في تعدد القراءات القرآنية؟ وهل يمكن الجزم بصحة معنى دون آخر مما يُفهم من القراءات أم أنّ هذه القراءات متعددة المعاني مختلفة الدلالات؟

كلمات مفتاحية: البلاغة، البيان، القرءات القرآنية، اختلاف المعاني.

Abstract (English):

There are many facets of miracles in the Quran from previous countries' news and what happened to them. Among the invisible things that will happen on the Day of Resurrection .As well as scientific, numerical and legislative miracles. And his illustrious artistic style, which the heads of rhetoric failed and made the statement to come like him. His readings differed in many faces, which made the scholars stand there . To show the objectives and purposes of this difference. Hence my research to show some aspects of the rhetoric and differences in readings .And resulting from it and a great scientific wealth. And a variety of jurisprudential rulings. The meanings vary and vary because of the difference of words from relief to emphasis. And the increase and deletion, and the different movements of the Arabs, and change the formulas Alsarfip.

Key words: miracle, speech, statement, Quranic readings, different meanings.
Résumé (français):
Il y a beaucoup de facettes de miracles dans le Coran des nouvelles des pays précédents et ce qui leur est arrivé. Parmi les choses invisibles qui se produiront le Jour de la Résurrection. Ainsi que des miracles scientifiques, numériques et législatifs. Et son style artistique illustre, que les chefs de la rhétorique a échoué et a fait la déclaration de venir comme lui. Ses lectures différaient dans de nombreux visages, ce qui a fait les érudits se tenir là. Pour montrer les objectifs et les buts de cette différence. D'où mes recherches pour montrer certains aspects de la rhétorique et des différences dans les lectures. Et résultant de lui et une grande richesse scientifique. Et une variété de décisions jurisprudentielles. Les significations varient et varient en raison de la différence de mots du soulagement à l'accent. Et l'augmentation et la suppression, et les différents mouvements des Arabes, et changer les formules Alsarfip.
Mots clés: miracle, discours, déclaration, lectures coraniques, significations différentes

مقدمة: نال موضوع الإعجاز القرآني بكل أشكاله وألوانه اهتمام العلماء قديما وحديثا، وتبارزت العقول فيه واختلفت الآراء والأفكار حول مواطن الإعجاز في القرآن الكريم وقراءاته، وكان للجانب البلاغي والبياني الحض الأوفر في دراسات علماء اللغة والتفسير، ولكي تتضح وجوه الإعجاز البلاغي والبياني في القراءات القرآنية ارتأيت أن أسلط الضوء أولا على مفهوم الإعجاز.

الإعجاز في اللغة:

جاء في لسان العرب " عَجَز: العَجْزُ: نقيضُ الحَزْمِ عَجَزَ عن الأمر يعْجِزُ وعَجِزَ عَجْزًا فيهما ورجل عَجِزٌ وَعَجُزٌ: عَاجِزُ، ومَرَة عَاجِزُ: عَاجِزَةٌ عن الشَّيء عن ابن الأعرابي، وعَجّزَ فلانٌ رأيّ فلانٍ إذَا نسبَه إلى خلاف الحَزْمِ كأنه نسبه إلى العَجْزِ، أعْجَزْتُ فُلاناً إذَا أَلْفَيتُهُ عَاجِزاً، والمعْجِزةُ: العَجْزُ، قال سيبويه هو المعْجِزُ والمعْجَزُ بالكسر على النادر والفتح على القياس لأنه مصدر، والعَجْزُ: الضُّعْفُ تقول: عَجَزْتُ عن كذا أَعْجِز، وفي حديث عمر" ولا تلبثوا بدار معجزة" أي: لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش، وقيل: بالثغر مع العيال، والمعجزة بفتح الجيم وكسرها مفعلة من العجز: عدم القدرة..."[1].

الإعجاز اصطلاحا:

يختلف مفهوم الإعجاز حسب كل علم وفن، ومعناه في عرف البلاغيين أن يتم نسج الكلام ونظمه بأسلوب راق لا يستطيع أحد أن يجاريه، قال الشريف الجرجاني: ومعناه في الكلام "هو أن

يُؤدّى المعنى بطريق هو أبلغ من جميع ما عداه من الطرق"[2]، وجعله الرافعي شيئين فقال: "إنما الإعجاز شيئان:ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان واتصال عنايته ،ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه ،فكأنّ العالم كله في العجز إنسان واحد ليس له غير مدته المحدودة بالغةً ما بلغت"[3].

وقبل الحديث عن الإعجاز البلاغي والبياني في القراءات القرآنية لابدّ أن نتطرق إلى مفهوم القراءات القرآنية والهدف من اختلافها ووجوه التباين بينها.

مفهوم علم القراءات:

اختلفت عبارات العلماء في تعريفهم للقراءات، قال عبد الفتاح القاضي في البدور الزاهرة: "هو علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية وطريق أدائها اتفاقاً، واختلافاً مع عزو كل وجه لناقله" [4]، وقال الإمام ابن الجزري في منجد المقرئين: هو "علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزو لناقله"[5].

والقراءات القرآنية وردت عن المصطفى-صلى الله عليه وسلم- في تعليمه لصحابته الكرام وثبت عنه أنه قال: ﴿إنَّ هذه القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه﴾[6].

وقد أُختلف في معنى سبعة أحرف اختلافا كبيرا وتعددت الآراء في ذلك، وقد ذكر السيوطي في الإتقان في علوم القرآن خمسا وثلاثين قولا للعلماء في ذلك منها[7]:

-المراد بالسبعة ليس حقيقة العدد، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة، ولفظ "السبعة" يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد، كما يطلق السبعون في العشرات، والسبعمائة في المئين، ولا يراد العدد المعين.

-أن المراد بها سبع قراءات، وفي رأي آخر المراد بها كيفية النطق بالتلاوة من إدغام وإظهار وتفخيم وترقيق وإمالة وإشباع، ومد وقصر...

- المراد سبع لغات إلى غير ذلك من الأقوال لا يسمح المقام بذكرها جميعا.

وفي حديث المصطفى-صلى الله عليه وسلم - رخصة إلى الأمة العربية تقرأ بما تيسر لها "والإنزال على سبعة أحرف كان توسعة من الله ورحمة على الأمة إذْ لو كُلِّف كلُّ فريق منهم ترك لغته والعدول عن العادة التي نشأوا عليها من الإمالة والهمز والتليين والمدّ وغيره لشق عليهم"[8].

وعلم القراءات يحمل في طياته معاني غزيرة، وفوائد جليلة، فالمفسّر يَرِدُ إليه فيصدر عن أوجه متعددة في الآية كل منها يفيد معنى، فيزيد تفسيره إشراقاً، والفقيه يقلِّب نظره في الأوجه، فيستخرج منها أحكاماً غابت عن غيره ممن لم يعرف لهذا العلم فضله.

وتعدد القراءات في الآية "فيها من نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز وغاية الاختصار وجمال الإيجاز، إذ كل قراءة بمنزلة الآية، إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يَخْفَ ما كان ذلك من التطويل،وفيها من التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة"[9].

فالله سبحانه وتعالى أعلم بحال عباده، وما هم عليه من اختلاف ألسنتهم ولهجاتهم والرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم- بُعث إلى جميع الخلق أحمرها وأسودها عربيها وعجميها، و" كانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى، ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج لاسيما الشيخ والمرأة، ومن لم يقرأ كتاباً كما أشار إليه -صلى الله عليه وسلم- فلو كُلّفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع"[10].

أوجه الاختلاف في القراءات القرآنية:

تختلف القراءات القرآنية عن بعضها البعض في جملة من الوجوه منها: اختلاف الأسماء من الإفراد والتثنية، والجمع والتذكير والتأنيث والاختلاف في الإعراب بحيث تكون الكلمة مثلا مرفوعة في قراءة ومنصوبة في قراءة أخرى والاختلاف في الزيادة والنقص، والاختلاف في التقديم والتأخير، وغيرها من الوجوه، وفي هذا البحث سنتطرق إلى بعض وجوه الاختلاف الحاصل بينها وبيان الإعجاز التشريعي منه.

أثر القراءات القرآنية في اختلاف الأحكام الفقهية:

اختلفت القراءات القرآنية في أوجه عديدة، فنجم عن ذلك اختلاف في استنباط القواعد الفقهية، وقد كان الاختلاف في الصيغة الصرفية بين التخفيف والتشديد سببا في اختلاف الأحكام الفقهية المستنبطة من طرف العلماء، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾البقرة 222، قرئ بالتخفيف وبالتشديد في حرف الطاء من كلمة "يطهرن"

وصيغة المبالغة تفيد وجوباً المبالغة في طهر النساء من الحيض، لأنّ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، أما قراءة التخفيف فلا تفيد هذه المبالغة ومجموع القراءتين يحكم بأمرين:

1- أنّ الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر، وذلك بانقطاع الحيض.

2- أنّها لا يقربها زوجها إلاّ إذا بالغت في الطهر وذلك بالاغتسال، فلا بد من الطّهرين كليهما في جواز قرب النساء، وهذا مذهب الشافعي ومن وافقه.

كما تعددت الأحكام الفقهية في غسل أو مسح الأرجل بسبب اختلاف القراءات القرآنية ومثال ذلك قوله تعالى﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُم وَأَيْدِيكُمْ إِلَى المَرَافِقِ، وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُم وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ﴾[11]. قُرئ بنصب لفظ " أرجلكم" وبجرها[12]، فالنصب يفيد طلب غسلها لأنّ العطف يكون حينئذ على لفظ"وجوهكم" المنصوب وهو مغسول، والجر يفيد مسحها لأن العطف حينئذ يكون على لفظ "رؤوسكم" المجرور وهو ممسوح، وقد بيّن الرسول -صلى الله عليه وسلم - أنَّ المسح يكون للابس الخف، وأن الغسل يجب على من لم يلبس الخف[13].

فالقراءتان قامتا مقام آيتين، وفُهم من الأولى معنى، ومن الثانية معنى غير الأول، والسنة الفعلية بيّنت ذلك، وهذا ما يجعلنا نقول إنّ تنوّع القراءات القرآنية يقوم مقام تعدد الآيات، وهذا وجه من وجوه بلاغتها وبيانها .

كما أنّ في القراءات تجلية وتوضيحاً لعقيدة ضلّ فيها بعض الناس كقوله تعالى في وصف الجنة ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيْماً وَمُلْكاً كَبِيْراً ﴾ [14].

جاءت القراءة بضم الميم وسكون اللام في لفظ "مُلْكاً"، وجاءت قراءة أخرى بفتح الميم وكسر اللام في هذا اللفظ نفسه، فرفعت القراءة الثانية نقاب الخفاء عن وجه الحق في عقيدة رؤية المؤمنين الله تعالى في الآخرة [15]، فالقراءة الأولى "مُلْكًا " أي أنّك ترى رزقا وخيرا كبيرا، والقراءة الثانية "مَلِكاً" أي أنك ترى نعيما ومَلِكًا كبيرا وهو الحق تبارك وتعالى، والمؤمنون الأتقياء لما يدخلون الجنة يرون من الخير العميم والملك العظيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويُكشف عنهم الحجاب فيرون ربهم وهو أفضل نعيم وقد أخبر المولى عز وجل أنّ المؤمنين سيرون ربهم فقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ يونس 26

وقد قيل-إنّ الحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر في وجه المولى عز وجل[16]، فالكلمة واحدة، لكنّ معناها اختلف باختلاف القراءات، وكلا القراءتين أخبرتا عن أمرين سيقعان وسيراهما المؤمنون في الجنة، وهذا وجه بارز من وجوه الإعجاز البياني في القراءات القرآنية.

وقال تعالى:﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيد ﴾ البقرة:282، قُرئ بفتح الراء وضمها في"يضار" فالفتح على أنَّ "لا" ناهية فالفعل مجزوم بعدها، والفتحة التي على الراء هي فتحة إدغام المثلين، أمّا الضم فعلى أنّ "لا" نافية، والفعل بعدها مرفوع[17].

فالفعل"يضار" فعل مضارع مجزوم بلا الناهية ،وأصله "يُضارَرْ" وأُدغمت الراءان فصار الفعل "يُضارَّ"، والمعنى المستفاد من هذه القراءة أنّه لا يجوز لأيٍّ أحد أن يُلحق الضرر بكاتب الدين أو الشاهد على كتابة الدين حتى تُحفظ الحقوق ولا تضيع أموال الناس.

والقراءة الثانية "لا يُضارُّ" جعلت الفعل مرفوعا، و"لا" السابقة له نافية، وعليه يكون المعنى: أنه صار في عرف الناس والمؤمنين أنّ كاتب الدين والشاهد عليه لا يضرهما أحد، لِمَا عرفوا من أمر الله في ذلك، وَلِمَا لهما من دور في حفظ الحقوق والأموال، وكلا الأمرين حاصل فالناس لمّا علموا نهي الله عن إلحاق الضرر بالكاتب والشهيد امتثلوا لأمره، فصار عندهم أمرا مألوفا، كما في قراءة قوله تعالى "واتّخَذوا "و" واتَّخِذُوا " التي سنتحدث عنها فيما بعد، وهذا كما ترى مظهر من مظاهر اقتصاد اللغة في القراءات القرآنية ، فاللفظ واحد والمعنى متعدد.

والسر البياني والبلاغي يكمن في التعدد الدلالي للآية الكريمة ،حيث نتج عن إدغام المثلين في" يُضَارَّ" معنيين مختلفين، فهي تحتمل لا يُضَارِرْ ولا يُضَارَرْ، قال أبو حيان:" واحتمل هذا الفعل أن يكون مبنياً للفاعل فيكون الكاتب والشهيد قد نُهيا أن يُضارّا أحداً بأن يزيد الكاتب في الكتابة أو يُحَرِّف، وبأن يكتم الشاهد الشهادة أو يُغَيِّرها أو يمتنع من أدائها، واحتمل أن يكون مبنياً للمفعول فنهى أن يضارَّهما أحدٌ بأن يُعَنّتا ويُشق عليهما في ترك أشغالهما، ويُطلب منهما ما لا يليق في الكتابة والشهادة.. ويُقوّي هذا الاحتمال قراءة عمر"ولا يُضارَرْ" بالفك وفتح الراء الأولى"[18].

ووجه البلاغة في هذه الآية أنَّ لفظة "يضارَّ" اشتملت على نهيين في صيغة واحدة نهي الكاتب والشهيد أن يلحقا الضرر بغيرهما؛ كترك الشهادة أو تحريفها، ونهي غيرهما أن يلحقوا الضرر بهما كأن يُبْخَسَ الكاتب حقه أو يُجْبَر الشهيد على شهادة الزور أو غير ذلك.

وهـذه المعـاني كلهـا واردة غـير متدافعـة لأنَّ الله سـبحانه وتعـالى يريـد أن يحفـظ حقـوق عبـاده ؛فـأمرهم بكتابـة الـدين ونهـاهم عـن ظلـم بعضـهم لـبعض وهـم يحـررون هـذه العقـود والمواثيـق، فـلا ينبغـي للكاتـب أن يزيـد أو يُـنقص، وكـذلك الشـهيد، ولا يجـوز لأي طـرف كـان أن يُكْـرِه الكاتـب أو الشـهيد أو يلحق بهما الضرر وهما يوثِّقان هذا العقد، وهذه الآية غاية في البلاغة والإيجاز.

الاخـتلاف فـي اللفـظ وفـي المعنـى جميعـاً مـع جـواز اجتمـاع القـراءتين في شـيء واحـد، وذلـك نحـو قولـه تعـالى: ﴿مَالِـكِ يَـوْمِ الـدِّين ﴾ الفاتحـة 4، أو﴿مَلِـكِ يَـوْمِ الـدين﴾ بجـر مالـك، ومَلِـكِ صـفة رابعـة للفـظ الجلالـة في قولـه تعـالى:﴿الـرحمن الـرحيم﴾ مـع جـرِّ لفـظ (الـدِّين) بالإضـافة "لأنّ المـراد بهـاتين القـراءتين جميعـاً هـو الله سـبحانه وتعـالى، وذلـك أنـه تعـالى مالـك يـوم الـدين ومَلِكُـه، فقـد اجتمـع لـه الوصـفان جميعـاً فـأخبر بـذلك في القـراءتين"[19]، وقـد قـرأ أنـس بـن مالـك:﴿ مَلِـكِ يـومِ الـدِّينِ﴾ بنصـب (ملـك)[20] علـى النِّـداء نـاظراً إلى مقتضـى توجيـه الـدُّعاء إليـه سـبحانه بعـد ذلـك :﴿اهـدنا الصـراط المسـتقيم ﴾الفاتحـة 5. وقـرأ جبـير بـن مطعـم (ت 59هـ): ﴿(مَلَـكَ يَـوْمَ الـدِّينِ) بفـتحِ كـلِّ حـروف كلمة(ملك) على أنَّها فعل ماض ونصب (يوم) على المفعولية حسب مقتضى قراءته هذه.[21]".

وبجمـع معـنى القـراءات يتجلـى السـر البلاغـي والبيـاني، حيـث نخلـص إلى نتيجـة مفادهـا أنّ الله سبحانه وتعـالى المالـك ليـوم الـدين وهـو المِلِـكِ، ولا ملـك سـواه، وإذا كـان كـذلك فهـو قـد مَلَـكَ يـوم الـدين ولا أحـد غـيره لـه الحـول أو القـوة علـى امتلاكـه، فهـذه الآيـة ومـن خـلال القـراءات الـثلاث أخـبرت عـن أمـور كثـيرة، وهـي أنّ الله مالـك ومِلِـكٌ مَلـكَ، فقامـت مقـام آيتـين أو ثـلاث، وهـذا يكشـف عمـا في القـراءات القرآنيـة مـن تعـدد دلالي، وسـمو بلاغـي وبيـاني لا يدانيـه أسـلوب الحـذاق والمهـرة مـن الشـعراء والكتاب والخطباء . .

وكـذلك قولـه تعـالى:﴿وَمَـا هُـوَ عَلَـى الغَيْـبِ بِضَـنِيْنٍ﴾ التكـوير: 24، فقـد اختلـف القُـرّاء في قراءتـه فقـرأه نـافع وابـن عـامر وعاصـم وحمـزة وأبـو جعفـر وخلـف بالضـاد السـاقطة الـتي تخـرج مـن حافـة اللسـان ممـا يلـي الأضـراس، وقـرأه البـاقون بالظـاء المشـالة الـتي تخـرج مـن طـرف اللسـان وأصـول الثنايـا العليـا، لأنّ المـراد بهـاتين القـراءتين جميعـا، وهـو أنّ النَّـبي –صـلّى الله عليـه وسـلّم– كـان غـير ضـنين بـه، مـن الضّـنّ بالضـاد مصـدره "ضَـنُّ " إذا بخـل، فيجـوز أن يكـون معنـاه الحقيقـي مـا صـاحبكم ببخيـل؛ أي: بمـا يُـوحى إليـه مـن الأمـور الغيبيـة طلبـا للانتفـاع بمـا يخـبر بـه، بحيـث لا ينبـؤكم بـه بِعَـوَضٍ تُعطونـه، وذلـك كنايـة عـن نفـي أن يكـون كاهنـا أو عرّافـا يسـألهم عوضـا عمّـا يخـبرهم بـه، ويجـوز أن يكـون "ضـنين" مجـازا مرسـلا في

الكتمان بعلاقة اللزوم، لأنّ الكتمان بخل بالأمر المعلوم للكاتم، أي ما هو بكاتم الغيب ،أي غير بخيل بتعليم ما علّمه الله وأنزله إليه، ظنين على الغيب، أي غير مُتَّهم فيما أخبر به عن الله تعالى، فقد انتفى عنه الأمران جميعاً فأخبر الله تعالى عنه بهما في القراءتين[22].

الاختلاف في حروف الكلمة:

تختلف القراءات عن بعضها البعض في حرف أو حرفين، وينجم عن ذلك اختلاف دلالي،ومثال هذا قوله تعالى:﴿ وَجَعَلُوا الملاَئِكَةَ الذِّينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا ﴾الزخرف 19، قرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج ونافع (عند الرحمن) ظرفا وهو أدلّ على رفع المنزلة وقرب المكانة، والكلام على الاستعارة في المشهور لاستحالة العندية المكانية في حقه سبحانه، وقرأ أبو عبد الرحمن بالباء (عباد) والمعنى على الجمع بإرادة الجنس"[23].

والمعنى المستفاد من القراءتين هو أنّ الملائكة هم عباد لله، وهم عنده، وهذا إخبار من الله سبحانه وتعالى عنهم ورد لما قاله الكفار والمشركون عن الملائكة، بحيث افتروا عليهم كذبا وبهتانا وقالوا: عن الملائكة بأنهم إناث، قال أبو جعفر النحاس:" إنّها ردّ لقولهم :الملائكة بنات الله، فقال: ليسوا بناتٍ هم عباد ...وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن أي: لم يروهم إناثا فكيف قالوا هذا وهم عند الرحمن وليسوا عندهم " [24] .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:﴿ وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ﴾ البقرة 259، وردت بالراء" ننشرها"ووردت بالزاي" ننشزها" والمراد بهاتين القراءتين جميعاً هي العظام، وذلك أنَّ الله تعالى أنشرها أي أحياها وأنشزها أي: رفع بعضها إلى بعض حتى التأمت، فأخبر سبحانه أنه جمع لها هذين الأمرين من إحيائها بعد الممات؛ ورفع بعضها إلى بعض لتلتمّ فَضَمَّنَ تعالى المعنيين في القراءتين تنبيهاً على عظيم قدرته [25].

الاختلاف في الصيغة الصرفية:

تختلف القراءات في الصيغ الصرفية، فيؤدي ذلك إلى تغير في المعنى، ومثال هذا قوله تعالى: ﴿ولما ضُرِبَ اِبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون﴾الزخرف 57، قرأ الحسن وإبراهيم، وأبو جعفر ونافع بضم الصاد في: "يصدون" وقرأ مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة، وأبو عمرو وعاصم وحمزة بكسرها، فالأولى بمعنى يصُدون غيرهم عن الإيمان، والثانية بمعنى صدودهم في نفوسهم، وكلا المعنيين حاصل منهم، فهم امتنعوا عن الدخول في الإسلام ومنعوا غيرهم، فحاربوا وقاتلوا وهجروا كل من ترك

دينهم "دين آبائهم وأجدادهم ولو كان لهم ولي حميم، فالآية من خلال هاتين القراءتين أخبرت عنهم بكلمة واحدة فقط، وهي "يصدون " وبتغيير في حركة الصاد بين القراءتين يختلف المعنى، وهو اختلاف تنوّع لا اختلاف تضادّ.

والظَنَّ أنَّ الوحي نزل بالوجهين" وأكثر تكثيراً للمعنى إذا جزمنا بأن جميع الوجوه في القراءات المشهورة هي مأثورة عن النبي–صلى الله عليه وسلم– ولا مانع بأن يجيء ألفاظ القرآن على ما يحتمل ذلك الوجوه مراداً لله تعالى ليُقرأ القرآن بوجوه، فتكثر من جرّاء ذلك المعاني، وهذا نظير التضمين في استعمال العرب، ونظير التورية والتوجيه في البديع"[26].

وقال تعالى:﴿ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾ البقرة: 10 فكلمة "يَكْذبون"وردت في رواية حفص" يَكْذِبُون"بالتخفيف، أي بسبب كذبهم في قولهم ءامنا بالله وباليوم الآخر، وفي رواية ورش ِ يُكَذِّبُون" بالتشديد، والمراد بهاتين القراءتين جميعاً هم المنافقون، وذلك أنّهم كانوا يَكْذِبُون في أقوالهم وأخبارهم، ويُكَذِّبون النبي"صلى الله عليه وسلم" فيما جاء به من عند الله تعالى، فالأمران جميعاً حاصلان منهم[27].

قراءة التخفيف أخبرت عما كانوا يفعلونه مع غيرهم لأنهم كانوا يكذبون في أقوالهم حينما يُخبرون غيرهم عن أمر الدعوة الإسلامية، وقراءة التشديد "يُكذِّبون " أخبرت عن حالهم مع نفوسهم أنهم لم يُصدِّقوا وكانوا يُكذِّبون بما جاء به المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وقال الله تعالى:﴿وَاتَّخَذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيْمَ مُصَلًّى﴾البقرة 125، قرئ بكسر الخاء على الأمر، وبفتحها على الخبر لأنَّ المراد بالقراءتين جميعاً هم المسلمون، وذلك أنَّ الله تعالى أمرهم باتخاذهم مقام إبراهيم مصلّى، فلما امتثلوا ذلك وفعلوه أخبر به عنهم، فجاءت القراءة بالأمرين جميعاً، للدلالة على اجتماعهما لهم؛ فهما صحيحان غير متضادين[28].

ومما تقرّر في علم الصرف أن اختلاف الصيغة الصرفية ينجم عنه اختلاف في المعنى، وعليه ف"صيغة اتّخِذوا " بكسر الخاء صيغة أمر أي: اجعلوا مقام إبراهيم مُصلّى، وصيغة "اتّخَذوا " بفتح الخاء إخبار عنهم أنهم امتثلوا لما أمرهم الله به، والسر البياني في هذا الآية واضح بحيث قامت مقام آيتين، آية أمر وآية إخبار.

اختلاف القراءات في الحركات الإعرابية:

وقال تعالى: ﴿ولاَ تُسَأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الجَحِيمِ﴾ [29]، وفي قراءة أخرى"لا تُسأَلُ" والمعنى حسب الصيغة الأولى نهي عن السؤال عنهم ما دمت قد أديت واجبك نحوهم، وحسب الصيغة الثانية إخبار وتأمين من الله لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، بأنَّه لن يسأله عن أصحاب الجحيم، لأنه قد دعاهم مرارا وتكرارا، وحذّرهم فما سمعوا قوله ولا استجابوا لدعوته، قال صاحب البحر: قراءة الجمهور بضم التاء واللام "ولا تُسأَلُ"، وقرأ ابن مسعود "ولن تُسأَلَ" وهذا كله خبر، والمعنى أنك لا تُسأَلُ عن الكفار مالهم لم يؤمنوا؛ لأنّ ذلك ليس إليك "إنْ عليك إلا البلاغ " "وإنّك لا تهدي من أحببت"، وقرأ نافع ويعقوب "ولا تَسأَلْ" بفتح التاء وجزم اللام، وذلك على النهي، أي نُهي الرسول –صلى الله عليه وسلم– أن يسأل عن أحوال الكفار... وقيل يحتمل أن لا يكون نهيا حقيقة؛ بل جاء ذلك على سبيل تعظيم ما وقع فيه أهل الكفر من العذاب كما تقول: كيف حال فلان إذا وقع في بلية، فيقال لك: لا تسأل عنه"[30].

والإعجاز البلاغي في هته الآية الكريمة يتجلّى من خلال المعاني المحتملة للفظة "تسأل"، فهي تحمل بشائر الارتياح والطمأنينة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنّ الله سبحانه وتعالى لا يسأله عن أهل الجحيم،لأنه أدّى واجبه نحوهم، فدعاهم إلى عبادة الله الواحد الأحد ،وتَرْكِ الشِّرك به، وأمرهم بالامتثال لأوامره، والانتهاء عما نهاهم عنه لكنهم كفروا وجحدوا وكذّبوا بما جاء به، وبما أمرهم به، فهو لا يُسأل عنهم يوم القيامة ،والمعنى المستفاد من القراءة الثانية "لا تَسأَلْ" نهي حقيقي للرسول – صلى الله عليه وسلم– أن يسأل عن الكفار والمشركين يوم القيامة وما جرى لهم، وقيل هو نهي غير حقيقي، وإنّما هو نهي على سبيل تعظيم ما لقي هؤلاء الكفار والمشركون من عذاب الجحيم، وعليه تكون هاتان القراءتان بمثابة ثلاث آيات في المعنى.

وقد وردت قراءات للصحابة اختلف إعرابها تبعاً لاختلاف مقتضياها، وكان لها أثر دلالي بارز، يتضح من خلال الأمثلة الآتية:

قال تعالى في أوَّل سورة الفاتحة:﴿الحمدُ لِلَّهِ رَبّ العَالمِينَ﴾، قُرئ برفع لفظ (الحمدُ) وبنصبه، وقراءة (الحمدَ لله) بالنَّصب قرأها هارون بن موسى، وسفيان بن عُيينة ورؤبة، وليست من القراءات السَّبع"[31].

والإعجاز البياني في القراءتين يتجلّى من خلال ما تفيده كل قراءة، فالتعبير بجملة اسمية (مبتدأ وخبر) يدلُّ على ثبوت الحمد لله سبحانه واستقراره له تعالى على الدوام والاستمرار، والنَّصب على أنَّه مفعول مطلق لفعل مقدّر أي: (نَحْمَدُ الحَمْدَ) أو مفعول به كذلك (الزموا الحمدَ).

وهذه جملة فعلية تفيد الحدوث والتَّجدد، والتَّعبير بالجملة الاسمية يعني ثبات الحمد من الأزل إلى الأبد قبل حمد الحامدين وبعده، كما أنَّه يعني أنَّ كونه تعالى محموداً لا يتوقف على حَمْدِ أحدٍ، فالحمد لله تعالى ثابت سواء حمدوا أو لم يحمدوا، كما أنَّه يخلو من توهم منْ يحمد أنه وفَّى الله تعالى حقه..[32].

وقال تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدَّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَام﴾[33]، قرئ:(ويُشهدُ الله) بضم ياء المضارعة ونصب لفظ الجلالة والمعنى أنه يستشهد بالله -الذي يعلم ما في القلوب، وهذا كالقسم- على أنه مؤمن ومخلص أي: أخ للمؤمنين، في حين أنه عدو لدود لهم، وقرئ: (ويَشهدُ اللهُ) بفتح ياء المضارعة ورفع لفظ الجلالة [34].

وعلى هذه القراءة فهو لا يستشهد بالله، والله سبحانه وتعالى يخبرنا أنَّه يشهد و يعلم حقيقة ما في قلبه، وأنَّه خلاف ما يقول، فهو عدو لدود، لكنَّه على هذا أقلُّ جرأة على الله.

خاتمة:

من خلال هذه النماذج التطبيقية تبيّن جليا ما تحمله وتضمره القراءات القرآنية من تعدد في وجوه الإعجاز البلاغي والبياني والتشريعي، فكل قراءة قرآنية هي بمثابة آية، وهذا الاختلاف في القراءات هو اختلاف تنوّع وتعدد للمعاني والأحكام وليس اختلاف تضاد، والمعاني التي يمكن أن نفهمها من تعدد القراءات كلها واردة غير متدافعة، فلا يستطيع أحد أن يجزم بصحة رأي دون آخر ما دام النص القرآني مفتوحا على التعدد الدلالي.

فهرس المصادر والمراجع:

1- لسان العرب لابن منظور ،دار صادر، 2003م،ج10، باب عجز.

2- التعريفات، الشريف الحسيني الجرجاني "ت816ه" تح : محمود أفت الجمال، المكتبة التوفيقية،ط1، 2013، ص28.

3- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي بيروت، 1425ه/2005م، ص98.

4- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح القاضين دار الكتاب العربي، ط1، (1401هـ) ، ص.5 5- منجد المقرئين، الجاحظ محمد بن محمد بن الجزري، تح: د/ عبد الحي الفرماوي، نشر مكتبة جمهورية مصر القاهرة ط1، (1397م) ص61.

6- صحيح البخاري، البخاري أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن، ط،بولاق (1162ه) ، ج6، ص185.

7- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تح: أحمد بن علي، دار الحديث القاهرة، 1427ه/2006م، ج1، ص156...160.

8- البرهان في علوم القرآن، تأليف الإمام بدر الدين عبد الله الزركشي (ت 794هـ) تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث القاهرة،ج1، ص227.

9- ينظر: جامع البيان في القراءات السبع لأبي عمرو الداني(ت444هـ) ، دراسة وتحقيق :الطالب خالد بن علي بن عبدان الغامدي، إشراف:د/ محمد ولد سيدي ولد حبيب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، قسم الكتاب والسنة، (1415ه، 1995م) .

10- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (ت833ه) ، المكتبة العصرية بيروت، 2008م ج1، ص46.

11- النشر في القراءات العشر، ج1، ص24.

12- المائدة : 06.

13- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه الأقاويل لجار الله الزمخشري مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر (1948م)، 1/ 106.

14- مناهل العرفان في علوم القرآن،الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، تح: فوّاز أحمد زمرلي،دار الكتاب العربي بيروت،ج ط1، (1415ه، 1995م) ،ص: 126.

15- الإنسان:20.

16- مناهل العرفان ج1، ص:126.

17- ينظر: التحرير والتنوير الطاهر بن عاشور، نشر الدار التونسية، (1984م)ج11، ص146، تفسير البحر المحيط ،لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت745هـ) دراسة وتحقيق وتعليق :الشيخ أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، (1413ه/1993م) ج5، ص149

18- مناهل العرفان، ج1، ص: 133.

19-تفسير البحر المحيط،ج2،ص370.

20- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب، تح: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، (1402هـ)، ج1/ 25.

21- ينظر: دفاع عن القرآن الكريم – أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللّغة العربيَّة – د/ محمد حسن جبل، البربري للطباعة الحديثة، بسيون غربية،(2000م) ، ص80 ،81

22- شواذ القراءات للكرماني، ص15.

23- ينظر: التحرير والتنوير، طاهر بن عاشور، ج30، ص 162 .

24- إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس تح : محمد محمد تامر وآخرين ، دار الحديث القاهرة 1428هـ/2007م ،30/3

25-روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي ،إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي ج25 ، ص 71.

26- حجة القراءات،لابن زنجلة ، تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة ، بيروت،ط2، (1399هـ) ص144.

27-التحرير والتنوير ، ج1 ، ص 58.

28-تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي ، إشراف الدكتور هاشم محمد علي بن حسن مهدي ، دار طوق النجاة ، ط1 : (1421هـ/ 2001م) ، بيروت لبنان ، المجلد الأول، ص172.

29- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها مكي بن أبي طالب تح: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة بيروت ط2، (1402هـ)،263/1.

30- البقرة 119.

31- البحر المحيط ،ج1 ، ص 538 .

32- معجم القراءات القرآنية 5/1 .

33- ينظر : الكشاف، للزمخشري (5/1)، و البحر المحيط ،أبو حيان الأندلسي ،18/1، 19.

34- البقرة: 204.

35- القراءة نسبت لابن عباس والحسن وابن محيصن وأبي حيوة ((معجم القراءات 1/ 156))، وينظر: تفسير القرطبي (3/ 25).